مقدمة المرزوقي
لشرح حماسة أبي تمام
شرح هذه المقدمة وضبطها
— ٢ —

(وقلتَ أيضاً اني أتمنى أن أعرف السبب في تأخر الشعراء عن رتبة الكتاب البلغاء والعذرَ في قلة المترسلين وكثرة المُفْلِقين والعلةَ في نباهة أُولئك وخمول هؤلاء ولماذا كان أكثرُ المترسلين لا يفلقون في قرض الشعر وأكثرُ الشعراء لا يبرعون في إنشاء الكتب حتى خُصَّ بالذكر عدد يسير منهم مثلُ ابراهيم ابن العباس الصولي وأبي علي البصير والعتّابي في جمعهم بين الفنين واغترازهم ركاب الظَّفرين ونظامُ البلاغة يتساوى في أكثره المنظوم والمنثور) .

هذا تمام محاراة المخاطب المحكية في قول المؤلف « فانك جاريتَني » وقوله « ثم سألتَني » وقوله « وقلتَ » وقوله « وزعمتَ » .

ووقع في كلام المؤلف « والعذر في قلة المترسلين وكثرة المفلقين » .

فالمترسلون هم أصحاب الترسل وهو صناعة انشاء الكلام النثري فان الانشاء يطلق عليه اسم الترسل اطلاقاً شائعاً وقد سمى شهاب الدين محمود الحلبي كتابَه في صناعة الانشاء حسنَ التوسل الى صناعة الترسل .

والمفلقون بضم الميم وكسر اللام هم فحول الشعراء يقال أفلق الشاعر اذا نبغ في الشعر وهذا اللفظ مشتق من الفِلق بكسر الفاء وسكون اللام وهو الشيء العجيب وهذا اللفظ من الكلمات التي ذهل عن إثباتها صاحب الصحاح وصاحب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القاموس وذكر المؤلف ثلاثة ممن خُص بالذكر من شعراء الكتاب ـ وقد بوّب ابن رشيق في العمدة باباً لأشعار الكتاب فذكر الصولي وبعضاً من جيد شعره وذكر أيضاً محمد بن عبد الملك الزيات . والحسنَ بن وهب . وسعيدَ بن حميد الكاتب . وذكر الوزير أبا الحسن بن الخلال المهدي وزير بني عبيد وأقول من شعراء الكتاب لسانُ الدين بن الخطيب الأندلسي .

والصُّولي منسوب الى صُول ضيعة من جرجان وهو تركي الأصل نشأ في الدولة العباسية في مدة المعتصم واتصل بالوزير الفضل بن سهل وتوفي سنة ٢٤٣ له نثر بليغ وشعر رقيق غير طويل ترجمه ياقوت في ارشاد الأريب .

وأبو علي البصير هو الفضل بن جعفر النخعي الكوفي الضرير سكن بغداد في خلافة المعتصم شاعر وكاتب توفي سنة ٢٥٥ ترجمه الصفدي .

والعتّابي هو كلثوم بن عمرو العتابي بفتح العين وتشديد التاء منسوب الى بني عتاب من بطون تغلب ولد بالشام وسكن بغداد واختص بالبرامكة ومدح الرشيد وهو شاعر مجيد وكاتب حسن الترسل توفي سنة ٢٢٠ ترجمه في إرشاد الأريب . ونظير ما ذكر فيمن جمع الشعر والترسل ما ذكره الجاحظ فيمن جمع الشعر والخطابة وعدّ منهم بضعة عشر في كتاب البيان والتبيين (١) .

(وانا ان شاء الله وبه الحول والقوة أورد في كل فصل من هذه الفصول ما يحتمله هذا الموضع ويمكن الاكتفاء به اذ كان لتقصي المقال فيه موضعٌ آخر . من غير أن أنصِب لما تصوره النعوتُ الأمثلةَ تفادياً من الإطالة لأنه اذا وضح السبيل وقعت الهداية بأيسر دليل والله عزّ وجل الموفق للصواب وهو حسبنا ونعم الوكيل) .

النعوت فاعل تصوره — والأمثلة مفعول أنصب وأصل النصب إقامة الشيء منصوباً ومنه سمي التمثال من الصخر ونحوه نصباً واستعار المؤلف فعل أنصب

(١) محمدية ٥ جزء طبع المطبعة التجارية الكبرى بالقاهرة سنة ١٣٤٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لمعنى أذكر أو أورد . ومراده بالنعوت التوصيفات الموضحة للحقائق والقواعد التي توضع لطرق النقد والاختيار — والتفادي التحامي وهو يتعدّى بمن غالبًا لا نعلم ضمنوه معنى التباعد .

وقوله ـ لأنه اذا وضح في النسختين التونسيتين ونسخة الأستانة ولأنه ـ .

(اعلم ان مذاهب نقاد الكلام في شرائط الاختيار مختلفة وطرائق ذوي المعارف بأعطافها وارادفها مفترقة وذلك لتفاوت أقدار منادحها على اتساعها وتنازح أقطار مظانها ومعالمها ولأن تصاريف المباني التي هي كالأوعية وتضاعيف المعاني التي كالأمتعة في المنثور اتسع مجال الطبع فيها ومسرحه وتشعب مراد الفكر فيها ومطرحه) . هذا شروع في إجابة أسئلة الذي جاراه .

المذاهب أصلها جمع مذهب وهو مكان الذهاب الى الطريق وتطلق كثيراً على الآراء والأفكار وسمّوها مذاهب لأنها كالطرائق يذهب فيها الفكر فمثلوا حركة الفكر في معلومات خاصة بمشي الماشي في طريق وذهابه فيه . فهذا الاطلاق استعارة ثم شاع عند أهل العلوم فصار حقيقة عرفية علمية في مجموع المسائل العلمية النظرية التي أخذ بها طائفة من علماء علم ما فيقال مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة ويقال مذهب البصريين ومذهب الكوفيين .

والأعطاف جمع عطف بكسر العين وهو قارعة الطريق ـ والأرداف جمع ردف وهو التابع الموالي وكأنه أراد بها أرداف الأعطاف أي الطرق المتفرعة عنها فصار ذانك اللفظان استعارتين لأصول أساليب الإنشاء ولما يتبع تلك الأصول من المحسنات كما يشير اليه قوله الآتي : ومنهم من لم يرض بالوقوف على هذا الحد . وقوله : ومنهم من ترقى الى ما هو أشق . قال السكاكي في مفتاح العلوم عند انتهاء كلامه على محسنات البديع : وأصل الحسن في جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعاني أعني أن لا تكون متكلفة . والمنادح جمع مندوحة وهي الأرض المتسعة والتنازح التباعد مشتق من نزح عن المكان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إذا بعد . والأقطار جمع قطر وضم القاف وسكون الطاء وهو الناحية المعينة من الأرض والبلدان . والمظان جمع مَظِنة بفتح الميم وكسر الظاء على خلاف القياس في بناء اسم المفعلة أي المكان الذي يظن وجود شيء ما فيه .

والمعالم جمع معلم بفتح اللام وهو اسم المكان الذي يعلم أنه كان منزل قوم ومعالمُ القوم منازلهم التي بها آثارهم وهي مشتقة من العلم فلذلك حسن جمع المؤلف بينها وبين المظان إيماء الى مراتب المعرفة بين علم وظن فأراد بالمظان القواعد النظرية التي أنتجها غلبة الظن وبالمعالم القواعد القطعية التي هي قواعد الفن الناشئة عن استقراء الأدب العربي . و (على) من قوله : (على اتساعها) هي بمعنى مع وهو معنى يعرض كثيراً في حرف على بمعنى أن تفاوت الأقدار تابع لاتساع أساليب الأدب ولمقدار إحاطة الأديب بتلك الأساليب وذلك أن حق (مع) أن تدخل على المتبوع فكذلك (على) التي هي بمعناها .

والتصاريف جمع تصريف وهو التغيير أي تغيير المتكلم كلامه من أسلوب الى أسلوب ومن كيفية الى أخرى بحسب اختلاف مواقعه . فالمراد تغيير طريقة الكلام التي يسلكها بأن يسلك مرة طريقة وأخرى طريقة غيرها لا تغيير الكلام الواحد وتبديله . وعرفه عبد القاهر [1] بقوله : (والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه) وهذا هو المعبر عنه بالأساليب جمع أسلوب وقد ذكرناه آنفاً . واطلاق التصريف على ذلك من إطلاق المصدر على اسم المفعول كالخلق بمعنى المخلوق .

والتضاعيف جمع تضعيف وهو تكرير الشيء أراد بها الفنون الكثيرة فجمعها لأن كل فن في الكلام هو تكرير للجنس الأعلى أعني جنس الخصوصيات البلاغية فهو تكريرُ مظاهرَ لا تكرير شيء معين . وقوله (اتسع مجال الطبع الخ) هو خبر عن قوله (ولأن تصاريف المباني الخ) .

---

(١) صفحة ٣٣٨ دلائل الاعجاز .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والطبع الوجدان الذهني والمراد به هنا وجدان البليغ وطبعه وهو المسمى عندهم بالذوق وهو الذي يحصل للبليغ من ممارسة كلام البلغاء ومن تطبيق القواعد والضوابط التي يتلقاها في تعلم الصناعة حتى تحصل له ملكة تميز بها أصناف الكلام في الجودة والرفعة ودونها بحيث تحكم بأن هذا الكلام حسن وهذا أحسن وهذا دون ذلك قال الجاحظ [1] (والانسان بالتعلم وبطول الاختلاف الى العلماء ومدارسة كتب الحكماء يجود لفظه ويحسن أدبه وهو لا يحتاج في فساد البيان الى أكثر من ترك التخير) . وقال السكاكي [2] (ليس من الواجب في صناعة أن يكون الدخيل فيها كالناشئ عليها في استفادة الذوق منها فكيف اذا كانت الصناعة مستندة الى تحكمات وضعية واعتبارات إلفية . ثم قال : وقد كان شيخنا الحاتمي [3] ذلك الامام الذي ان تسمح بمثله الأدوار ما دار الفلك الدوّار يحيلنا بحُسن كثير من محسنات الكلام اذا راجعناه فيها على الذوق ونحن حينئذ ممن نبغ في عدة شعب من علم الأدب) اهـ . وبهذا يتضح أن الذوق والتطبع مترادفان ولذلك تسمع أئمة الأدب يقولون : (هذا يشهد به الذوق السليم والطبع المستقيم) ونحو هذه العبارة .

والمجال مكان الجولان وهو الطواف .

والمسرح مكان السروح وهو انطلاق الأنعام في المرعى . وقد أشار المؤلف الى جهة الاختلاف الأولى إذ قال (وذلك لتفاوت أقدار منادحها على اتساعها وتنازح أقطار مظانها ومعالمها) .

وأشار الى معذرتهم عن التحير في تعيين مدخل الاستحسان وضده بقوله :

---

(١) في البيان والتبيين صفحة ٧٤ – ٧٥ جزء أول طبع التجارية الكبرى .

(٢) في القسم الثالث من المفتاح في القانون الأول من الفصل الأول منه .

(٣) الحاتمي هذا لم أقف من ترجمته على سوى أنه يلقب بشرف الدين وانه تلميذ عبد القاهر الجرجاني وانه شيخ السكاكي وقد ذكره السكاكي في المفتاح غير مرة وهو غير الحاتمي عصر المتنبي الذي ألف كتاب نقد المتنبي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(ولأن تصاريف المباني التي هي كالأوعية وتضاعيف المعاني التي هي كالأمتعة ـ الى قوله ـ ومطرحه) .

وأراد المؤلف بهذين مواضيع المعاني البلاغية التي يعمل فيها الفكر لاستخراج دقائقها .

والمراد بضم الميم موضع رياد الابل وهو تنقلها في المرعى مقبلة ومدبرة . ووقع في النسختين التونسيتين ونسخة الأستانة (مراد الفكر لها) وهو أحسن .

والمطرح مكان الطرح أي البعد وكل هذه تفننات من المؤلف .

وقوله (في المنثور) يتنازعه (تصاريف وتضاعيف) . قيّد موضوع بحثه هذا بالكلام المنثور لأنه سيخص الشعر ببحث آخر يجيء عند قوله (وكان الشعر قد ساواه)[1] .

ومعنى كلام الامام المرزوقي أن تنوع كيفيات مواقع الكلام البليغ مع دلالته على المعاني التي يقصد اليها البلغاء قد كان تنوعاً يتجاذبه اعتبار الفاظ الكلام واعتبار المعاني التي قصدها البلغاء من صناعتهم في البلاغة ، هو الذي كان سبباً في اختلاف أذواق علماء الأدب في شروط محاسن إيقاعها اختلافاً ناشئاً عن اختلاف أميال الناقدين والمختارين بحسب ما ألِفُوه من ممارسة ما يُعجَبون به ويروق لديهم من نتائج أهل اللسان . وهم مع ذلك متحيرون في تعيين سبب مدخل الاستحسان أو ضده الى أذواقهم أهو من جهة اللفظ أم هو من جهة المعنى ويوضحه قوله فمن البلغاء الخ .

وقد أشار المؤلف الى جهة الاختلاف الأولى إذ قال (وذلك لتفاوت أقدار مناحيها على اتساعها وتنازح أقطار مظانها ومعالمها) وأشار الى معذرتهم عن التحير في تعيين مدخل الاستحسان وضده بقوله (ولأن تصاريف المباني التي هي كالأوعية وتضاعيف المعاني التي هي كالأمتعة الى قوله — ومطرحه) .

---

(١) صحيفة ٨٧ من جزء مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وليس مراد أصحاب هذا المذهب اهمالَ الالتفات الى جانب المعاني ولكنهم جعلوا الاهتمام بالألفاظ في الدرجة الأولى . فأول ما يُقصد من اهتمام البليغ عند أهل هذا المذهب هو الكلام الذي هو قوالب للمعاني كما أفصح عنه المرزوقي في آخر كلامه بقوله (فأكثر هذه الأبواب لأصحاب الألفاظ إذْ كانت للمعاني بمنزلة المعارض للجواري فأرادوا أن يلتذ السمع بما يدرك منه ولا يمجه ويتلقاه بالاصغاء اليه والإذن له فلا يحجبه) .

ثم بقوله «ومن البلغاء من قصد فيما جاش به خاطره الخ» وحاصل ما أشار اليه المؤلف اختلاف أئمة النقد في تعيين الناحية للكلام التي منها يكون فضله أو ضده وبها يستحق اختياره أو رده .

وسبب هذا الاختلاف في مرجع التفضيل أن أهل النقد والاختيار وجدوا في أنفسهم إدراكاً للتفاضل بين كلامات البلغاء تفاضلاً توافقوا عليه في الغالب واختلفوا فيه تارات بين مختار ومنتقد فأيقنوا أنهم ما اتفقوا على الكلام الذي اتفقوا على تفضيله إلا لخصال اشتمل عليها موجبةٍ لتفضيله متساويةٍ في الثبوت عندهم وأنهم ما اختلفوا في الكلام الذي اختلفوا فيه إلا لخصال تخالف الخصال التي اعتادت نفوسُ أهل الاختيار استحسانَها وتوافق الخصالَ التي اعتادت نفوس أهل النقد كراهتها . فأيقنوا أن من خصال الكلام ما هو حقيق بأن يكون مناط اختيارٍ وضده فكان ذلك الإدراك في اتفاقهم واختلافهم حافزاً لهم للبحث عن جوامع تلك الخصال ومقوماتها .

وعلموا أن إدراكهم وفاقاً وخلافاً يرجع الى معتادهم من مزاولة مختلف أحوال كلام البلغاء في مراتبه أعلاها وأدناها فبعثهم على وصف ما يسمعونه بحسنٍ أو بدونه .

وكان لكل كلام بليغ مبانٍ أي ألفاظٌ بُني عليها في حسن التئام وانتظام ، ومعانٍ لها صور في العقل يستجيدها السامع ويغتبط بها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان ذلك الإدراك انفعالاً ذهنياً يؤول بالدُّربة الى ملكات ذوقية فلما حاولوا أن يستدلوا عليه عند المجادلين أو أن يصفوه للمتعلمين عند المدارسة ، ضاقت الأفكار عن الإحاطة بأسبابه . والعبارةُ عن الدلالة على مناطه ، فاحتاروا في أن مثار ذلك الادراك الحاصل لهم من أين نشأ ، أهو من جانب مباني الألفاظ وانتظامها أم من جانب المعاني وصورها ثم احتاروا في شرح أسباب حصول ذلك في أحد الجانبين أو في كليهما فاستعان كل واصف على إبانة الأوصاف التي تعقلها إبانةً بما حضر لديه من التقريب والتشبيه والتمثيل عسى ان يبلّغ ما في نفسه الى نفوس المجاذبين والمسترشدين فشبهوا المعاني تارةً بأحوال الاناسي والحيوان من الجواري ، والظباء وأحوال المتاع النفيس من حلي أو نحو ذلك . ثم استتبعوا تلك التشبيهات بالبناء عليها فجعلوا للجواري معارض ومطارف وجعلوا للحيوان وحشياً وأنسياً ووصفوا اللفظ المقبول بالنبيه وبالشريف وضدّه بالهجين وبالردي والمستكره .

ووصفوا المعنى المقبول بالرفيع وبالكريم . وضدّه بالحقير والفاسد والدني والساقط[1] .

ثم عززوا ذلك كله بالمقارنات بين منشئات البلغاء . والموازنة بينها وقد تصدى المؤلف الى تقريب ذلك كله والجمع بين مختلفه بما تفنن في أوصافه مع الحرص على الاختصار فقال : (اعلم أن مذاهب نقاد الكلام في شرائط الاختيار مختلفة وطرائقَ ذوي المعارف بأعطافها وأردافها مفترقة وذلك لتفاوت أقدارُ مناديحها على اتساعها وتنازح أقطار مظانها ومعالمها ولأن تصاريف المباني التي هي كالأوعية وتضاعيف المعاني التي هي كالأمتعة . في المنثور اتسع مجال الطبع فيها ومسرحه . وتشعب مراد الفكر فيها ومطرحه) . وكان الخائضون في هذا الشأن فريقين ففريق وهم الأكثرون هم من أصحاب الذوق والبلغاء من الأدباء ولكنهم غير متمرسين في علوم المعاني والبيان فكانوا اذا وصفوا الكلام البليغ وصفوه بالأساليب

(١) ص ٧٤ الجزء الأول من البيان والتبيين للجاحظ طبع الرحمانية بمصر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

التي اعتادوها وهي الابانة عن محاسن الكلام بالتقريب بأساليب التشبيه والمجاز والكناية فيبرز وصفهم الكلام في صورة إنشاء بليغ ولكنه لا يشفي غليل الطالب ولا يبلغ به الواصف قصده وهذا كما وصف البحتري وقارن فقال :

في نظام من البلاغة ما شك امرؤٌ أنه نظامُ فريدِ
وبديعٍ كأنه الزهر الضا حك في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع ما يخـ ـلقه عوده على المستعيد
ومعانٍ لو فضلتها القوافي هجنت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركـ ـن به غاية المراد البعيد

وفريق هم أصحاب علوم العربية من المعاني والبيان غير أنهم لم يكمل عندهم ذوق صناعة البلاغة وهؤلاء قصاراهم بيان خصائص الكلام البليغ بياناً كلياً وتمثيله بشاهد أو شاهدين مما فيه تلك الخصوصية ولا يحفلون بأن تكون شواهدُهم مستكملةً شروط الجودة بأكثر من اشتمالها على ما يحقق القاعدة .

وأحق الناس بإطلاق العنان في هذا الميدان هم الذين استكملوا عُدة الفريقين وتكلموا باللسانين مثل الجاحظ والآمدي وعبد القاهر والسكاكي والمرزوقي وابن الأثير وان كان هذا الأخير دونهم ذوقاً [1] .

(تونس) محمد الطاهر ابن عاشور

يتبع :

(١) سنأتي ترجمته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net